

التناسق الموضوعي في السورة القرآنية

إعداد

محمد بن عمر بن سالم بازمول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله، من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ۝

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا.

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أمّا بعد : فهذه دراسة بعنوان: (التناسق الموضوعي في السورة القرآنية).

وقد أدرتها على العناصر التالية:

المدخل : القرآن العظيم متشابه مثاني.

المبحث الأول : تعريف التناسق الموضوعي .

المبحث الثاني: العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية.

المبحث الثالث: العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي .

المبحث الرابع : العلاقة بين المناسبات في القرآن العظيم والتناسق الموضوعي .

المبحث الخامس : البداية والنشأة .

المبحث السادس: أنواع سور القرآن الكريم من جهة تعدد الموضوعات .

المبحث السابع : التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم .

المبحث الثامن : خطوات تطلب التناسق الموضوعي في السورة .

الخاتمة، وفيها أهم النتائج .

والله أسأل أن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة، وأن يجزي أشتياخي عني وعن المسلمين خير

الجزاء، وأن يجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، والحمد لله رب العالمين.

المدخل : القرآن العظيم كتاب متشابه مثاني

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

القرآن العظيم كتاب الله تبارك وتعالى، يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْحُسْنِ، وَيُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ.

يُكْرَرُ وَيُقَابَلُ فِيهِ بَيْنَ ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ، إِذَا ذُكِرَتْ آيَاتُ الْعَذَابِ خَافَتْ قُلُوبُهُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ فَاقْشَعَرَّتْ جُلُودُهُمْ، وَإِذَا ذُكِرَتْ آيَاتُ الرَّحْمَةِ رَجَوْا رَحْمَةَ اللَّهِ لَأَنْتَ وَسَكَنْتَ قُلُوبُهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرَّعْد - ٢٨) (١).

نزل القرآن العظيم منجماً، منه ما كان نزوله ابتداءً، ومنه ما كان نزوله بحسب الوقائع والأحداث، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

ورُتِبَتِ الْآيَاتُ فِي السُّورِ بِتَوْقِيفٍ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ فَقَدْ تَوَاتَرَ ذَلِكَ عَنْهُ تَوَاتُرًا مَعْنَوِيًّا لَا شَبْهَةَ فِيهِ، وَقَدْ نَقَلَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ (٢).

ورُتِبَتِ سُورَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى وَفْقِ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَهُ فِي قِرَاءَةِ الرَّسُولِ

(١) انظر تفسير البغوي / طيبة (١١٥/٧).

(٢) انظر تهذيب وترتيب الاتقان ص ١٦٠.

(١) قال الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) رحمه الله (الاتقان في علوم القرآن (أبو الفضل) (١) / ١٧١-١٧٢). : "المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان وليس كذلك! إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شاهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق. وقد قال علي: لو وليت لعملت بالمصاحف [الذي] عمل بها عثمان" اهـ. وقال البغوي رحمه الله (ت ٥١٦هـ) رحمه الله (شرح السنة ٥٢١/٤-٥٢٣). : "إن الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً. ... فأمر [خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن قدموا شيئاً أو أخرجوا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقي أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل صلوات الله عليه، إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السورة التي يذكر فيها كذا ... فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا أنزله الله تعالى جملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ثم كان ينزله مفرقاً على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مدة حياته عند الحاجة، وحدوث ما يشاء الله عز وجل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة. وكان هذا الاتفاق ن الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة، رحمة من الله عز وجل على عباده وتحقيقاً لوعده في حفظه، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ثم إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقرؤون القرآن بعده على الأحرف السبعة، التي أقرأهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

فجاء متناسقاً منتظماً متلائماً ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨)
 (الزمر: ٢٨). ف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾
 (الكهف: ١).

=

وسلم بإذن الله عز وجل، إلى أن وقع الاختلاف بين القراء في زمن عثمان، وعظم الأمر فيه، وكتب الناس بذلك من الأمصار إلى عثمان، وناشدوه الله تعالى في جمع الكلمة، وتدارك الناس قبل تفاقم الأمر. وقدم حذيفة بن اليمان من غزوة أرمينية فشافه بذلك، فجمع عثمان عند ذلك المهاجرين والأنصار، وشاورهم في جمع القرآن في المصاحف على حرف واحد، ليزول بذلك الخلاف، وتتفق الكلمة، واستصوبوا رأيه، وحضوه عليه، ورأوا أنه من أحوط الأمور للقرآن، فحينئذ أرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، فأرسلت إليه، فأمر زيد بن ثابت والرهط القرشيين الثلاثة فنسخوها في المصاحف، وبعث بها إلى الأمصار. "اه. قلت: بعد هذا العرض تعلم أن ترتيب سور القرآن العظيم على هذا النحو ترتيب توقيفي، إذ ليس في خبر جمع القرآن ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم غيروا أو بدلوا، بتقديم أو تأخير شيء من المصحف الذي جمعه، و ألفوه على ترتيب واحد من البداية. أما حديث ابن عباس: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطرًا: "بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فما حملكم على ذلك؟ ..."
 الحديث ؛ فإنه حديث ضعيف جداً، وألفاظه منكروه. قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٢٩/١ - ٣٣١ تحت رقم ٣٩٩) عن هذا الحديث: "لا أصل له". تنبيه : في مسألة ترتيب سور القرآن أقوال أخرى، انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٦٠)، الالتقان في علوم القرآن للسيوطي (أبو الفضل) (١/ ١٧٦). قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: "إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" (انظر: المقنع للداني ص ١٨، المرشد الوجيز ص ٤٦، وانظر روح المعاني (١/ ٢٣)، ومباحث في علوم القرآن لصباحي الصالح ص ٧١ - ٧٣).

فتناسقت آياته وسوره وعطف بعضها على بعض فصار كالكلمة الواحدة^(١)،
 في صدق أخباره، وعدل أحكامه. ﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥).

وانتظمت موضوعات القرآن العظيم، في جميع سوره، وفي كل سورة على حدة؛
 فهناك تناسق موضوعي في القرآن، وتناسق موضوعي في كل سورة من سوره.

فما هو التناسق الموضوعي؟

وما العلاقة بينه وبين المناسبات؟

وما علاقته بالوحدة الموضوعية؟

وما علاقته بالتفسير الموضوعي؟

وغير ذلك من المسائل ، هي موضوع الصفحات التالية.

(١) هذه الكلمة ذكرت في تطلب مناسبات القرآن العظيم، نقل الزركشي في البرهان (١/٣٦)، عن القاضي أبي بكر بن العربي في سراج المريدين قوله: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه" اهـ. وذكرت في تطلب تفسير الآية بالآية (تفسير القرآن بالقرآن) قال الرازي في تفسيره عند الآية ٣٠ من سورة البقرة، : "المسألة الأولى : في ﴿إِذْ﴾ قولان : أحدهما : أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب . الثاني : وهو الحق أنه ليس في القرآن ما لا معنى له وهو نصب بإضمار اذكر ، والمعنى أذكر لهم قال ربك للملائكة فأضمر هذا لأمرين : أحدهما : أن المعنى معروف . والثاني : أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله : ﴿وَإِذْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ (سورة الأحقاف : ٢١)، وقال : ﴿وَإِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ (سورة يس : ١٣ ، ١٤)، والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصروفة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصريح" اهـ

المبحث الأول : تعريف التناسق الموضوعي :

(التناسق الموضوعي) مركب توصيفي، وسنن العلماء في تعريف المركب أن يبدأ بتعريف كل لفظة من ألفاظ هذا المركب على حدة. ثم ينظر في تعريفه بعد التركيب.

و (التناسق الموضوعي) مركب من كلمتين: (التناسق) و (الموضوعي)؛ فنبداً بتعريف كلمة (التناسق)، ثم تعريف كلمة (الموضوعي)؛ التناسق في اللغة ، مادته النون والسين والقاف، وهذه المادة تدلُّ على تتابعٍ في الشَّيء.

تقول: كَلَامٌ نَسَقٌ. أي: جاءَ على نظامٍ واحدٍ قد عُطِفَ بعضُه على بعض. وأصله قولهم: ثَعَرْتُ نَسَقًا، إذا كانت الأسنانُ متناسقةً متساوية. وخرَزْتُ نَسَقًا: منَظَّمٌ^(١).

وفي اصطلاح التدوين لم يخرج معنى هذه الكلمة عن معناها اللغوي^(٢). و(الموضوعي) في اللغة من الموضوع، ومادته [الواو والضاد والعين: أصلٌ واحد يدلُّ على الحَفْضِ للشيء و حَطُّه. ووضَعْتُهُ بالأرض وضعاً، ووضعت المرأة ولدها. ووضِعَ في تجارتِه يُوضَع: خَسِرَ.

(١) انظر معجم مقاييس اللغة (٣٣٦/٥).

(٢) لم أجد اصطلاحاً خاصاً للنسق غير ما جاء في معنى الكلمة لغة.

والوضائع: قومٌ يُنقلون من أرضٍ إلى أرضٍ يسكنون بها.
 الوَضِيع: الرَّجُلُ الدَّيِّ.
 والدَّابَّةُ تَضَعُ في سَيْرِها وَضْعاً، وهو سَيْرٌ سهْلٌ يخالف المرفوع.
 وَوَضَعَ الرَّجُلُ: سار ذلك السَّير.
 وَذَكَرَ أَنَّ الواضِعات: الإبل تأكل الخَلَّة.
 والرجل المَوْضِع: الذي ليس بمستحكم الأمر^(١).
 ومنه المواضعة بمعنى الموافقة؛ إذ يجتمع أهل الاصطلاح على كلمة لمعنى
 يتفقون عليه^(٢).
 والموضوع: الفكرة (القضية) التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه^(٣).
 وكأن المتكلم لما يتكلم يطرح مقالته للنظر فيها، ولعل من هنا جاءت
 الأَطْرُوحَة، والله اعلم.
 وعند المحدثين: الحديث المختلق^(٤).
 عند الفلاسفة: المدرك^(١).

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٧ - ١١٨)، باختصار.
 (٢) انظر القاموس المحيط حيث قال: "والمَوْضَعَةُ: المُرَاهَنَةُ، ومُتَارَكَةُ البَيْعِ، والمُؤَافَقَةُ في الأمرِ" اهـ.
 (٣) قال الجرجاني في التعريفات ص ٣٠٥: "الموضوع هو محل العرض المختص به. وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن وموضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية" اهـ، واعتمد هذا المعنى
 مجمع اللغة العربية انظر المعجم الوسيط مادة (وضع) (٢/ ١٠٤).
 (٤) انظر النُّوْعُ الحَادِي وَالْعِشْرِينَ: مَعْرِفَةُ الْمَوْضُوعِ، من كتاب ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث
 مقدمة ابن الصلاح) ص ٩٨.

وفي المنطق محل العرض المختص به، يقابل الذات والمقول عنه والمحمول^(٢).

وعند علماء التفسير الموضوعي : هو القضية التي وردت في القرآن^(٣).
فالاسم (التناسق الموضوعي) بركنيه معناه : تتابع القضايا، وانتظامها وترتيبها في القرآن العظيم وسوره.
وعليه فإن التناسق الموضوعي في القرآن الكريم، هو نظام القرآن الكريم، وهو ذو شقين:

الشق الأول : التناسق الموضوعي في القرآن جميعه .

الشق الثاني : التناسق الموضوعي في سوره، سورة سورة.

وهو بهذا يتداخل مع مناسبات القرآن العظيم التي هي : "علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض"^(٤). أو : "المعنى الذي يربط بين سوره وآياته"^(٥).

فيدخل التناسق الموضوعي في المناسبات، حيث علل الترتيب والمعنى الرابط يكون بين الموضوعات التي تشتمل عليها السورة وبين الآيات داخل السورة، فما تعلق بالموضوعات من جهة نسقها ونظامها وتتابعها وتلاؤمها هو

=

(١) فهو تعيين الشيء للدلالة على شيء، والشيء الأول هو الموضوع، لفظا كان او اشارة او هيئة، والشيء

الثاني هو المعنى الموضوع له. المعجم الفلسفي / جميل صليبا ص ٨٧.

(٢) نظر التعريفات للجرجاني (موضوع). وقارن بالمعجم الوسيط مادة (وضع) (٢/١٠٠٤).

(٣) يدل عليه تصرفهم في ذلك.

(٤) انظر نظم الدرر (١/٥).

(٥) انظر الإتيان (أبوالفضل ٣/٣٢٣).

التناسق الموضوعي دون غيره من أوجه علل الترتيب أو المعنى الذي يربط بين سور القرآن وآياته.

فإنّ المعنى الرابط وعلل الترتيب إمّا تكون بين موضوعات السورة أو بين آيات وأجزاء الآيات في السورة.

والمعنى الذي يربط بين موضوعات السورة ويبين علل ترتيبها؛ إمّا أن يكون للربط بين آية وآية داخل السورة، أو للربط بين موضوع مقطع وموضوع مقطع آخر داخل السورة.

والثاني إمّا أن يكون لمجرد إبراز الصلة بين موضوع مقطع وآخر، أو لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع والترتيب بين موضوعات السورة جميعها، فهذا هو التناسق الموضوعي في السورة القرآنية؛ فهو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة ويبين علل ترتيبها؛ لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين الموضوعات.

ويكون التناسق الموضوعي في القرآن الكريم بإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين موضوعات السور، بعد تحرير مقاصدها والغاية التي ترمى إليها كل سورة، فينتظم موضوعات القرآن الكريم تناسق تام ونظام بديع يبهّر العقول ويأخذ بالألباب.

فالتناسق هو إبراز نظام البناء الموضوعي للسورة في ترتيب وترابط وإنسجام.

المبحث الثاني : العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية:

في التناسق الموضوعي ينظر الباحث في ترابط موضوعات السورة فيما بينها، وانتظامها على هذا الترتيب الذي هي عليه في المصحف، ووجه التقديم والتأخير، ولم جاءت هذه القضية في هذه السورة؟ ووجه المعنى الذي يربطها بما قبلها وبما بعدها؟ وما يتم ذلك من النظر في باقي موضوعات السورة الواحدة، أو اتساق جملة من السور في موضوعاتها.

وفي الوحدة الموضوعية يبحث عن المحور الأساس الذي تدور عليه موضوعات السورة، فيذكر الباحث مقاصد السورة، وموضوعاتها، ثم ينظر في الموضوع المحور الأساس الذي يجمع هذه الموضوعات، والغاية التي ترمي إليها، التي هي بيت قصيدها، دون نظر في تنأع الآيات، و نظامها في موضوعاتها. فالتناسق الموضوعي يهدف إلى إبراز التقارب والتلاؤم بين موضوعات السورة في نظام بديع، بينما الوحدة الموضوعية يطلب فيها إبراز الهدف والغاية التي ترمي إليها السورة، ومحلّه مع المقاصد الكلية.

والتناسق الموضوعي معين في الوصول إلى الوحدة الموضوعية في السورة ومرشد إليها.

والعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، فالتناسق الموضوعي أعم من الوحدة الموضوعية، فكل وحدة موضوعية تناسق موضوعي، وليس كل تناسق موضوعي وحدة موضوعية.

المبحث الثالث : العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي:

في التناسق الموضوعي يقدم الباحث ما يدل على انتظام وتناسق السورة الواحدة من القرآن العظيم أو مجموعة من السور، لفظاً ومعناً، بهدف إبراز التلاؤم والتوافق بين الموضوعات.

أمّا في التفسير الموضوعي فإن نظر الباحث إلى ما جاء في القرآن الكريم عن هذا الموضوع، و عرض عناصر الموضوع، بحسب ما تدل عليه الآيات وما يكمله من السنة النبوية لاستجلاء هدايات القرآن الكريم في الموضوع. فالغرض في التفسير الموضوعي غير الغرض في التناسق الموضوعي، فالعلاقة بينهما علاقة تباين.

فمثلاً: حينما تريد الكلام عن موضوع قرآني فأنت تستعرض القرآن الكريم، وتجمع الآيات المتعلقة به، سواء آيات صريحة ظاهرة، أم آيات غير صريحة، ثم تقسم هذه الآيات بحسب عناصر الموضوع الذي دلت عليه، وترتبها بحسب التسلسل المناسب لها، وتكمل عناصر الموضوع من السنة النبوية، لتتوصل إلى هدايات القرآن الكريم في هذا الموضوع.

بينما في التناسق الموضوعي مقصدك موضوعات السورة، ووجه انتظامها على هذا النسق الذي عطف فيه بعضها على بعض، وتوالى فيه بعضها عقب بعض، لإظهار تلاؤم الموضوعات في السورة، وترتيبها، في نظم بديع، يخرس الطاعنين في القرآن الكريم برمية بالاضطراب وعدم التلاؤم؛ فهذا شيء آخر غير التفسير الموضوعي.

المبحث الرابع : العلاقة بين المناسبات في القرآن العظيم والتناسق الموضوعي:

اعلم أن ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة،
يندرج تحته الفنون التالية:

- المناسبات .
- التناسق الموضوعي .
- الوحدة الموضوعية .

أمّا الأول منها فقد نصوا عليه صراحة في كتب علوم القرآن الكريم.
وأمّا الثاني والثالث فإنه يأتي أثناء كلامهم في التفسير، ويشار إليه ضمنا في
المناسبات؛
فمن ذلك :

قال ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) رحمه الله، في كتابه "سراج المريدين": "ارتباط
أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة
المباني؛ علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله
لنا فيه فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه
بيننا وبين الله ورددناه إليه" اهـ^(١).

واتساق المعاني الظاهر أن المراد به التناسق الموضوعي.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٦٣)، نظم الدرر للبقاعي (١/٦)، الإيتقان (أبو
الفضل ٣/٣٢٣).

وانتظام المباني الظاهر أن المراد به المناسبة بين الآية والآية.

قال الرازي (ت ٦٠٦ هـ) رحمه الله في آخر كلامه على سورة فصلت عند (الآية : ٤٤): "وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ الْمُقْصُودَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، هُوَ ذِكْرُ الْأَجُوبَةِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ فَتَارَةً يُنَبِّهُ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَتَارَةً يَذْكُرُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَمْ يُعْرِضْ عَنْهُ، وَامْتَدَّ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ عَلَى تَرْتِيبِ الْحَسَنِ وَالنَّظْمِ الْكَامِلِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ جَوَابًا آخَرَ عَنْ قَوْلِهِمْ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقُرْ﴾، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾" اهـ^(١).

وقال : "وَكُلُّ مَنْ أَنْصَفَ وَلَمْ يَتَعَسَّفْ عَلِمَ أَنَّنَا إِذَا فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَلَامًا وَاحِدًا مُنْتَظِمًا مَسُوقًا نَحْوَ غَرَضٍ وَاحِدٍ" اهـ^(٢).

وهذا نص منه على التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة.

وللسيوطي كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور).

والمقصود أن اسم (التناسق الموضوعي في السورة القرآنية)، و (الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية)، اصطلاحان حادثان في هذا العصر، لم يأتيا في

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/٥٦٩).

(٢) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/٥٧٠).

كلام المتقدمين صراحة.

ولمّا كان اختلاف التسمية مشعر بوجود فرق وتباين ومغايرة، لزم النظر في الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة، والعلاقة بينها.

أمّا مناسبات القرآن العظيم فهي: "علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض" ^(١). أو هي: "المعنى الذي يربط بين سوره وآياته" ^(٢).

والعلل هي المعاني التي تصلح أن تكون رابطة بين الآية والآية، والسورة والسورة.

وقد تضمن هذا التعريف الإشارة إلى أنواع المناسبات، وهي التالية:

القسم الأول: المناسبات الداخلية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، وتعلق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

الثاني: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقى له، وذلك براعة الاستهلال.

الثالث: مناسبة ختام السورة لمطلعها.

الرابع: مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها، ومنه مناسبة أسماء الله الحسنی للآية التي ختمت بها.

الخامس: مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر.

(١) انظر نظم الدرر (٥/١).

(٢) انظر الإتيان (أبوالفضل ٣/٣٢٣).

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

الثاني: مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها .

الثالث: مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

الرابع : مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور، أو

لسورة.

فمثلاً: الفاتحة أم الكتاب؛ لأنه يُبدأ بكتابتها في المصحف وبقراءتها في الصلاة قبل السورة، ولأن الأم مبدأ الولد، أو لأن الفاتحة أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن العظيم، وما فيه من العلوم والحكم؛ لأن أم الشيء أصله^(١).

وهذا التقرير فيه إشارة إلى معنى يربط بين الفاتحة وسائر سور القرآن

العظيم، فهنا مناسبة سورة لمجموع سور القرآن.

مثال آخر: ما جاء عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ

أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

(١) فتح الباري (١٥٦/٨)، قطف الأزهار (٣/ب).

قَالَ: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ^(١).

فهذا الحديث فيه بيان معنى يربط بين آية واحدة وسائر آي القرآن العظيم.
مثال آخر: الآيات من آية رقم (١)، إلى الآية رقم (٢٠) من سورة البقرة
تعتبر المقدمة بالنسبة لمحتوى السورة، حيث وصف القرآن بما هو أهله، ووصف
متبعيه ومخالفيه كلاهما يستحقه.

ثم يأت المقصد الأول من آية رقم (٢١ - ٢٥)، في دعوة الناس كافة إلى
الإسلام.

ثم يأت المقصد الثاني من آية رقم (٤٠ - ١٦٢)، في دعوة أهل الكتاب،
دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

ثم يأت المقصد الثالث من آية رقم (١٧٨ - ٢٨٣)، في عرض شرائع هذا
الدين تفصيلاً.

ثم يأت المقصد الرابع في آية واحدة وهي رقم (٢٨٤)، في ذكر الوازع
والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

ثم تأت الخاتمة في آيتين اثنتين هما رقم (٢٨٥ - ٢٨٦)، في التعريف بالذين
استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم
وآجلهم.

أمّا الآيات من (٢٦ - ٣٩)، الواقعة بين المقصد الأول والثاني، فقد كان

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث
رقم (٨١٠).

الحديث فيها عوداً على بدء.

والآيات من (١٦٣-١٧٧)، كانت مدخلاً للمقصد الثالث.

ها أنت ترى مدى التناسب بين مقاطع أطول سورة في القرآن العظيم^(١)،
فهنا مناسبة بين مجموعة آيات ومجموعة أخرى داخل سورة واحدة.
وهذا النوع اعني مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر،
وترتيب ذلك في السورة، هو المعبر عنه اليوم بـ(التناسق الموضوعي في السورة
القرآنية).

فإن زاد المفسر على ذلك ونظر المفسر فيما يرمي إليه هذه الترتيب، والغاية
التي ينتهي إليها، والمحور الذي تدور عليه موضوعات السورة ويجمعها، فهذا هو
المعبر عنه اليوم بـ (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)؛ إذ هو الهدف والمحور
الأساس الذي تندرج موضوعات السورة فيه على ترتيبها.

فالوحدة الموضوعية لسورة يقصد منها: أن يسعى المفسر إلى بيان
الموضوعات التي تضمنتها الآيات، ومن ثم الربط بينها، بذكر المعنى الذي يجمع
بينها، والتي تكون تارة معنوية، وتارة لفظية؛ ومن ثم إيجاد الموضوع المحوري
الذي تهدف إليه السورة.

والربط المعنوي كمقابلة الخير بالشر، وكقرن الترهيب بالترغيب، بعلاقة
التضاد.

والربط اللفظي مثل أن تعطف الآية على الآية، أو أن تقع الآية موقع البيان

(١) وقد فصل في بيان ذلك وتقريره صاحب كتاب "النبأ العظيم" ص ١٦٣-٢١١.

مما قبلها، أو الحال، أو نحو ذلك.

ومما تقدم يظهر أن التناسق الموضوعي للسورة بعض المناسبات.

فالتناسق الموضوعي بوابة الوحدة الموضوعية للسورة.

ومما يعين في تحرير المحاور الأساس للسورة الوقوف على وجه ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم، وهو من المناسبات الخارجية، وكذا مع ما قبلها وما بعدها، كما يعين في ذلك معرفة وجه الربط بين هذه الموضوعات التي تضمنتها السورة.

في المناسبات ينظر المفسر إلى الربط بين الآية والآية، ومناسبة ختمها لموضوعها، ومناسبة التقديم والتأخير فيها، ناظراً إلى الروابط المعنوية واللفظية بين الآية والآية، والمقطع والمقطع، أو مطلع السورة وختامها، أو بين السورة والسورة قبلها، أو بعدها، أو بين السورة ومجموعة السور.

وفي التناسق الموضوعي ينظر إلى السورة باعتبار موضوعاتها، كيف ارتبط بعضها ببعض، وما النظام الذي سارت عليه، وتتابع فيه، حتى وصلت السورة إلى غايتها أو بين موضوعات عدة سور وإبراز التناسق بين موضوعاتها.

ففي التناسق نظر إلى موضوعات السورة أو السور، وفي المناسبات نظر إلى الآيات والسور، ووجه الربط بينها، فالتناسب ترابط سور القرآن الكريم وآياته حتى يكون كالكلمة الواحدة. وهذا موضوع علم المناسبات، وهو ما يصح أن يطلق عليه: (الوحدة القرآنية)^(١).

(١) انظر كتاب الوحدة القرآنية دراسة تحليلية مقارنة، للدكتور محمد بن محمود خوجه، دار كنوز أشبيليا

ويلتقي التناسق الموضوعي مع المناسبات فيما يتعلق بالربط بين موضوعات الآيات في السورة أو بين السور.

فالتناسب بين مقاطع السورة فيما يشكل موضوعاتها هو التناسق الموضوعي، والتناسب بين أجزاء الآية والآية والآية هو المناسبات.

فالعلاقة بين التناسق الموضوعي والمناسبات عموم وخصوص، فكل تناسق موضوعي مناسبات، وليس كل مناسبات تناسق موضوعي.

والحق أن التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية والمناسبات بينهما تداخل، فالدائرة الكبرى هي للمناسبات، ويليهما دائرة التناسق الموضوعي، ويليهما دائرة الوحدة الموضوعية؛

فكل وحدة موضوعية تناسق موضوعي.

وكل تناسق موضوعي مناسبات.

وليس كل مناسبة وحدة موضوعية.

وليس كل مناسبة تناسق موضوعي.

فإن قيل: كيف تكون الوحدة الموضوعية من المناسبات، وعباراتهم تدل على أنها مما يرشد ويعين على معرفة المناسبات، وهذا يقتضي أن غرض السورة غير المناسبة.

قال محمد بن أحمد الملوي (ت ٧٧٤هـ) رحمه الله: "الذي ينبغي في كل آية:

أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم.

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقى له" اهـ^(١).

وقال أبو الفضل محمد البجائي المالكي (ت ٨٦٥هـ)، وهو من شيوخ البقاعي رحمه الله، ونقل هذا عنه: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقى له السورة. وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات.

وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب.

وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين آية وآية، في كل سورة والله الهادي" اهـ^(٢).

قال البقاعي (ت ٨٨٥هـ) رحمه الله متحدثاً عن المناسبات في القرآن العظيم: "وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها" اهـ^(٣)؟

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٣٧).

(٢) نظم الدرر (١/١١)، وانظر الإتقان (أبو الفضل ٣/٣٢٧-٣٢٨) فقد نقل هذا الكلام بعينه وقال: "قال بعض المتأخرين".

(٣) نظم الدرر (١/٥).

فالجواب : إن تطلب أغراض السورة وموضوعاتها، في حقيقته تطلب للمناسبة بين مقاطع موضوعات السورة حتى يتوصل بذلك إلى معرفة المناسبة بين الآيات داخل المقطع. فهو من المناسبات من هذا الوجه.

وحيث إن الكلام عن المناسبات قد كتب فيه، وسجل في كتب التفسير، والكلام عن مقاصد السور أفرد في مصنفات، ويأتي في بعض كتب التفسير، بخلاف الكلام على المحور الأساس (= الوحدة الموضوعية) للسورة، فإنه لم يفرد بالنصيف، ولا تجد فيه إلا إشارات، وقد تجده في كتاب (نظم الدرر) للبقاعي ولكن بتعب؛ فإن معرفة المناسبات في هذه الحالة تعين على الوقوف على الغرض الذي سيقته له السورة. ولا يخرج ذلك عن أنه من علم المناسبات كما ترى.

ويرشح لك هذا إذا تذكرت أن غرض الآيات أو السورة يدل عليه أسباب النزول، وهذا مما يعين في معرفة مقصود الآيات أو السورة المطلوب إبراز المناسبات فيها، وهذا أمر خارج عن المناسبة وله تأثيره فيها، فكذا الوحدة الموضوعية ترشد إلى معرفة المناسبات، ومعرفة ترتيب موضوعات السورة، وأغراض الآيات فيها يرشد إلى معرفة الغاية التي ترمي إليها، والهدف الذي سيقته له، وهذا الوحدة الموضوعية في السورة.

وعليه فإن العلاقة بين الوحدة الموضوعية والمناسبات علاقة فيها تداخل، فمعرفة المناسبات تعين على معرفة المقصد الذي سيقته له، وهو المحور الأساس للسورة، والعكس صحيح، فإن معرفة الغرض الذي سيقته له يعين على معرفة المناسبات.

ويتحرر مما سبق :

- أن علم المناسبات هو الدائرة الكبرى التي يدخل تحتها ويليهها دائرة التناسق الموضوعي.
- أن دائرة التناسق الموضوعي يندرج تحتها دائرة الوحدة الموضوعية.
- أن كل تناسق موضوعي هو مناسبات.
- أن كل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي.
- أن كل وحدة موضوعية هي مناسبات.
- ليس كل مناسبات تناسق موضوعي.
- ليس كل مناسبات وحدة موضوعية.

المبحث الخامس : البداية والنشأة :

اعلم أن تسمية هذا النوع من الدرس بـ (التناسق الموضوعي)، تسمية جرت في هذا العصر، وكان معناها المراد من قبل مندرجا تحت اسم (المناسبات). وقد ذكر العلماء أن من إعجاز القرآن الكريم ارتباط آياته بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني.

قال أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) رحمه الله: "ارفع طرف قلبك، وانظر بعين عقلك، وراجع جليلة بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثا وسورة. لا، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل ... "اه^(١).

والتناسق الموضوعي صورة من صور هذا الإعجاز في القرآن الكريم، فهو كلام الله تعالى، يحير في روعته الأبواب، ويسلب في جماله القلوب، ويأخذ بالأبصار.

قال ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) رحمه الله، في كتابه "سراج المريدين": "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني؛ علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٢. (ذخائر العرب تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الثالثة دار المعارف

بمصر الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.)

لنا فيه فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه "اه" (١).

قف عند قوله: "متسقة المعاني منتظمة المباني"، فالتساق المعاني، للربط بين الموضوعات هو التناسق الموضوعي، وانتظام المباني هو المناسبات.

وجاء الرازي (ت ٦٠٦ هـ) رحمه الله، فتكلم عن التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية أثناء تفسيره بوضوح، من ذلك في كلامه على سورة فصلت في آخرها، قال: "وَكُلُّ مَنْ أَنْصَفَ وَلَمْ يَنْعَسَفْ عَلِمَ أَنَّا إِذَا فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَلَامًا وَاحِدًا مُنْتَظِمًا مَسُوقًا نَحْوَ غَرَضٍ وَاحِدٍ" اه (٢).

وقال الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) رحمه الله: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم: الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها؛

فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق ببعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٦٣)، نظم الدرر للبقاعي (١/٦)، الإتيان (أبو الفضل ٣/٣٢٣).

(٢) التفسير الكبير (إحياء التراث) (٢٧/٥٧٠).

أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده؛

فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه لا بحسب مقصود المتكلم.

فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد فعلية بالتعبد به، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل فإنها تبين كثيرا من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر.

غير أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت وعليه أكثر سور المفصل.

وتارة يكون متعددا في الاعتبار بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء وقرأ باسم ربك وأشباهاها،

ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء

ولكن هذا القسم له اعتباران؛

اعتبار من جهة تعدد القضايا فتكون كل قضية مختصة بنظرها ومن هنالك يلتبس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه.

واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال، ويشترك معه أيضا القسم الأول لأنه نظم ألقي بالوحي، وكلاهما لا يلتبس منه فقه على وجه ظاهر وإنما يلتبس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض مسائل نبه عليها... وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول

الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات؛

فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود كما أن الإقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها؛

فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها،

منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب.

ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم.

ومنها ما هو المقصود في الإنزال وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب.

ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك "هـ" (١).

فالسورة مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية (٢).

وأخذ الموضوع بعداً أعمق على يد البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) رحمه الله في كتابه

(١) الموافقات (٣/٤١٣-٤١٤ دراز)، (٤/٢٦٦ مشهور).

(٢) النبأ العظيم ص ١٩٢.

"نظم الدرر من تناسب الآي والسور"، وفي كتابه "مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور".

وجاء في القرن الماضي محمد بن عبد الله دراز (ت ١٣٧٧ هـ)، رحمه الله، وتكلم كلاماً يصلح لتقرير الوحدة الموضوعية للسورة كما يصلح لتقرير التناسق الموضوعي، فهو يقول: "أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي - لو تدبرت - بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً.

ولماذا نقول: إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحُجُرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثر، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعضاء؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع

اختلاف وظائفه العضوية" اهـ^(١).

كن على ذكر من أن الوحدة الموضوعية تتداخل مع التناسق الموضوعي، فتقرير الوحدة الموضوعية ، هو تقرير للتناسق الموضوعي ، وبالله التوفيق.

فالتناسق الموضوعي؛

بدأ مع نظم القرآن الكريم.

ثم نما واستقر في علم المناسبات.

ثم عاد واستقل في هذا العصر تحت اسمه المستقل (التناسق الموضوعي في

السورة القرآنية).

(١) النبأ العظيم ص ١٨٨،

المبحث السادس : أنواع سور القرآن الكريم من جهة تعدد الموضوعات :

السور القرآنية على نوعين :

الأول : سورة ذات موضوع واحد، فهذا لا تعدد للموضوعات فيها، وبالتالي لا ينظر فيها من جهة إبراز التناسق الموضوعي إنما من جهة المناسبات والروابط اللفظية والمعنوية سواء كانت داخلية أو خارجية.

الثاني : سور ذات موضوعات متعددة؛ فهذا يطلب فيها إبراز التناسق الموضوعي، بين موضوعاتها المتعددة.

يقول الشاطبي رحمه الله: "إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت وعليه أكثر سور المفصل. وتارة يكون متعددا في الاعتبار بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء وقرأ باسم ربك وأشباهها ،

ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء ولكن هذا القسم له اعتباران؛

اعتبار من جهة تعدد القضايا فتكون كل قضية مختصة بنظرها ومن هنالك يلتبس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه.

واعتماد من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال، ويشترك معه أيضا القسم الأول لأنه نظم ألقي بالوحي،

وكلاهما لا يلتبس منه فقه على وجه ظاهر وإنما يلتبس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض مسائل نبه عليها ... وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات" اهـ^(١).

فمثلاً قصار السور في غالبها ذات موضوع واحد، فلا يطلب فيها إبراز التناسق الموضوعي، إنما يطلب فيها إبراز المناسبات الداخلية والخارجية.

من ذلك : سورة الإخلاص :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {١} اللَّهُ الصَّمَدُ {٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ {٤}﴾

فهذه السورة ليس فيها غير موضوع واحد وهو تقرير صفة الأحدية لله سبحانه وتعالى، فهو واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في استحقاقه أن يعبد دون سواه، لم يكن له كفوا أحد.

ومن ذلك : سورة المسد :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {١} مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {٢} سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ {٣} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {٤} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {٥}﴾.

فهذه السورة موضوعها واحد، وهو التوبيخ والوعيد لأبي لهب .

(١) الموافقات (٣/٤١٣-٤١٤ دراز)، (٤/ ٢٦٦ مشهور)، وسيأتي نقل هذا المقطع كاملاً في سياقه إن شاء الله.

المبحث السابع : التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم

الوقوف على المقاصد الكلية للقرآن الكريم يتعلق بدراسة التناسق الموضوعي للسورة أو للقرآن العظيم عموماً، من جهات متعددة، وهي التالية:

- فيه إبراز لتناسق القرآن الكريم سورة سورة، وإبراز لتناسق جميع سورته مع مقاصده الكلية، حيث يبرز النظام الذي يربط موضوعات السورة، كما يبرز كيفية اتساق هذه الموضوعات بنظامها مع المقاصد الكلية التي يهدف إليها القرآن العظيم.
- يعتبر الأساس إلى مشروعية النظر في المحور الأساس الذي تهدف إليه السورة الكريمة بموضوعاتها المتعددة؛ لأن معرفة هذا الغرض سيقود إلى المقصد الكلي للقرآن الكريم، وإذا كان لجميع القرآن بتعدد سورته وآياته وموضوعاته مقاصد كلية يعود إليها، فإنه من باب أولى أن يكون للسورة الواحدة ذات الموضوعات المتعددة محوراً وهدفاً وغرضاً تدل عليه، يرتبط مع مقصود القرآن الكريم الكلية.

- الربط بين تناسق السورة وبين باقي سور القرآن طريقه هو معرفة هذه المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وبالتالي فإن المقاصد الكلية للقرآن طريق نظام القرآن الكريم، وهو الطريق إلى نظام السورة.

هذه أهم جهات العلاقة بين النظر في المقاصد الكلية للقرآن الكريم،

والنظر في التناسق الموضوعي للسورة.

وقد تعددت وتنوعت الأساليب في ذكر هذه المقاصد الكلية للقرآن الكريم، ولكنها ترجع إلى شيء واحد.
قال ابن القيم رحمه الله: "ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن وهي عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه سبحانه نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأنه واحد لا شريك له وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق و ذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته محتجا به على من ألحد في أسمائه وتوحيده وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها.

القسم الثالث: ما اشتمل عليه بدء الخلق وإنشاؤه ومادته وابتداعه له وسبق بعضه على بعض وعدد أيام التخليق وخلق آدم وإسجاد الملائكة وشأن إبليس وتمرده وعصيانه وما يتبع ذلك.

القسم الرابع: ذكر المعاد والنشأة الأخرى وكيفيته وصورته وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال وإعادة خلقهم خلقا جديدا.

القسم الخامس: ذكر أحوالهم في معادهم وانقسامهم إلى شقي وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك.

القسم السادس: ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم

وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات، وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندین فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان .

القسم السابع : الأمثال التي ضربها لهم والمواعظ التي وعظهم بها ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاقها ليزهدوا فيها ويتركوا الإخلاد إليها ويرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم.

القسم الثامن : ما تضمنه من الأمر والنهي والتحليل والتحريم وبيان ما فيه طاعته ومعصيته وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق وما يكرهه ويبغضه منها وما يقرب إليه ويدني من ثوابه وما يبعد منه ويدني من عقابه وقسم هذا القسم إلى فروض فرضها وحدود حدها وزواجر زجر عنها وأخلاق وشيم رغب فيها.

القسم التاسع : ما عرفهم إياه من شأن عدوهم ومداخله عليهم ومكايدهم وما يريد بههم وعرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيدهم منهم وما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم وبينه وما يتبع ذلك.

القسم العاشر : ما يختص بالسفير بينه وبين عبادته عن أوامره ونواهيه وما اختصه به من الإباحة والتحريم وذكر حقوقه على أمته وما يتعلق بذلك.

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن "اهـ^(١).

(١) الصواعق المرسلة (٤ / ٦٨٤).

قال شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله: "ليعلم أن المعاني التي يشتمل عليها القرآن لا تخرج عن خمسة علوم:

١ - علم الأحكام: كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، سواء كانت من قسم العبادات أو المعاملات، أو الاجتماع أو السياسة المدنية. ويرجع تفصيل هذا العلم وشرحه إلى الفقيه.

٢ - علم الجدل: وهي الحاجة مع الفرق الأربع الباطلة، اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين. ويرجع في شرح هذا العلم وتعريفه إلى المتكلم.

٣ - علم التذكير بآلاء الله: كبيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان الصفات الإلهية.

٤ - علم التذكير بأيام الله: وهو بيان تلك الوقائع والحوادث التي أحدثها الله - تعالى - إنعاماً على المطيعين ونكالاً للمجرمين (كقصص الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - ومواقف شعوبهم وأقوامهم معهم).

٥ - علم التذكير بالموت وما بعد الموت: كالخسر والنشر والحساب والميزان، والجنة والنار. ويرجع تفصيل هذه العلوم وبيانها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها إلى الواعظ والمذكر.

وقد جاءت هذه العلوم في القرآن الكريم على طريقة العرب الأولين، لا على منهج العلماء المتأخرين، فلم يلتزم في آيات الأحكام، منه، طريق الإيجاز والاختصار كمؤلفي المتون الفقهية، ولا طريق تنقيح الحدود والقيود، كما يفعله الأصوليون.

وقد التزم في آيات الجدل والمخاصمة إيراد الأدلة المشهورة المسلمة،

والبراهين الخطابية ، لا تنقيح البراهين ، وتقسيمها على طريقة المنطقيين .

ولم يراع في الانتقال من مقصد إلى آخر ، ومن موضوع إلى موضوع آخر ، تلك المناسبة ، التي يراعيها الأدباء المتأخرون ، بل ألقى على عبادته ما رآه مهماً ، سواء كان مقدماً أو مؤخراً^(١) .

قال ابن عاشور رحمه الله : " أَلَيْسَ قَدْ وَجَبَ عَلَى الْآخِذِ فِي هَذَا الْفَنِّ أَنْ يَعْلَمَ الْمَقْاصِدَ الْأَصْلِيَّةَ الَّتِي جَاءَ الْقُرْآنُ لِتَبْيَانِهَا فَلَنَلِمَ بِهَا الْآنَ بِحَسَبِ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ اسْتِقْرَؤُنَا وَهِيَ ثَمَانِيَةُ أُمُورٍ :

الأوّل: إِصْلَاحُ الْإِعْتِقَادِ وَتَعْلِيمُ الْعَقْدِ الصَّحِيحِ ، وَهَذَا أَعْظَمُ سَبَبٍ لِإِصْلَاحِ الْخُلُقِ ، لِأَنَّهُ يُزِيلُ عَنِ النَّفْسِ عَادَةَ الْإِذْعَانِ لِغَيْرِ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ، وَيُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الْأَوْهَامِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِشْرَاكِ وَالذَّهْرِيَّةِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١] فَأَسْنَدَ لِآلِهَتِهِمْ زِيَادَةَ تَتْبِيبِهِمْ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ فِعْلِ الْآلِهَةِ وَلَكِنَّهُ مِنْ أَثَارِ الْإِعْتِقَادِ بِالْآلِهَةِ .

الثاني: تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ قَالَ تَعَالَى : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [القلم: ٤] وَفَسَّرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا لَمَّا سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ . وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» بَلَاغًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ» . وَهَذَا الْمَقْصِدُ قَدْ فَهِمَهُ عَامَّةُ الْعَرَبِ بَلْهُ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ ، وَقَالَ أَبُو خِرَاشٍ الْهُذَلِيُّ مُشِيرًا

إِلَى مَا دَخَلَ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ بِأَحْسَنِ تَعْبِيرٍ:
 فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَاسِلُ
 وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ... سِوَى الْعَدْلِ شَيْئًا فَاسْتَرَاحَ الْعَوَاضِلُ
 أَرَادَ بِإِحَاطَةِ السَّلَاسِلِ بِالرَّقَابِ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: "وَعَادَ
 الْفَتَى كَالْكَهْلِ".

الثَّالِثُ: التَّشْرِيعُ وَهُوَ الْأَحْكَامُ خَاصَّةً وَعَامَّةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النِّسَاء: ١٠٥] ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨] . وَلَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنُ جَمِيعَ الْأَحْكَامِ جَمْعًا كُلِّيًّا فِي الْغَالِبِ، وَجَزْئِيًّا
 فِي الْمُهْمِّ، فَقَوْلُهُ: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحْل: ٨٩] ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
 دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الْمُرَادُ بِهِمَا! إِكْمَالُ الْكُلِّيَّاتِ الَّتِي مِنْهَا الْأَمْرُ بِالِاسْتِنْبَاطِ
 وَالْقِيَاسِ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ: "لِأَنَّهُ عَلَى اخْتِصَارِهِ جَامِعٌ وَالشَّرِيعَةُ تَمَّتْ بِتَمَامِهِ وَلَا يَكُونُ
 جَامِعًا لِتَمَامِ الدِّينِ إِلَّا وَالْمَجْمُوعُ فِيهِ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ".

الرَّابِعُ: سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ فِي الْقُرْآنِ الْقَصْدُ مِنْهُ صَلَاحُ الْأُمَّةِ
 وَحِفْظُ نِظَامِهَا كَالْإِزْشَادِ إِلَى تَكْوِينِ الْجَامِعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا
 وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
 بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٣] ،
 وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٩] ،
 وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٦] وَقَوْلِهِ:

﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] .

الخامس: الْقِصَصُ وَأَخْبَارُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ لِلتَّائِسِي بِصَالِحِ أَحْوَالِهِمْ قَالَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠] وَلِلتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَاوِيهِمْ قَالَ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] وَفِي خِلَالِهَا تَعْلِيمٌ... .

السادس: التَّعْلِيمُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَةَ عَصْرِ الْمُخَاطَبِينَ، وَمَا يُؤْهَلُهُمْ إِلَى تَلَقِّي الشَّرِيعَةِ وَنَشْرِهَا وَذَلِكَ عِلْمُ الشَّرَائِعِ وَعِلْمُ الْأَخْبَارِ وَكَانَ ذَلِكَ مَبْلَغَ عِلْمِ مُحَاظِي الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ زَادَ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ تَعْلِيمَ حِكْمَةِ مِيزَانِ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الْإِسْتِدْلَالِ فِي أَفَانِينَ مُجَادَلَاتِهِ لِلضَّالِّينَ وَفِي دَعْوَتِهِ إِلَى النَّظَرِ، ثُمَّ نَوَّهَ بِشَأْنِ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وَهَذَا أَوْسَعُ بَابٍ انْبَجَسَتْ مِنْهُ عُيُونُ الْمُعَارِفِ، وَانْفَتَحَتْ بِهِ عُيُونُ الْأُمَمِ إِلَى الْعِلْمِ، وَقَدْ لَحِقَ بِهِ التَّنْبِيهُ الْمُتَكَرِّرُ عَلَى فَايِدَةِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَطْرُقَ أَسْمَاعَ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّمَا قُصَارَى عُلُومِهِمْ أُمُورٌ تَجْرِييَّةٌ، وَكَانَ حُكْمَاؤُهُمْ أَفْرَادًا اخْتَصُّوا بِفَرْطِ ذِكَاٍ تُضَمُّ إِلَيْهِ تَجْرِبَةٌ وَهُمْ الْعُرَفَاءُ فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وَقَالَ: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] فَنَبَّهَ إِلَى مَزِيَّةِ الْكِتَابَةِ.

السابع: الْمَوَاعِظُ وَالْإِنْذَارُ وَالتَّحْذِيرُ وَالتَّبَشِيرُ، وَهَذَا يَجْمَعُ جَمِيعَ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَكَذَلِكَ الْمُلْجَّةُ وَالْمُجَادِلَةُ لِلْمُعَانِدِينَ، وَهَذَا بَابُ التَّرَّغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

الثَّامِنُ: الإِعْجَازُ بِالْقُرْآنِ لِيَكُونَ آيَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ إِذِ التَّصْدِيقُ يَتَوَقَّفُ عَلَى دَلَالَةِ الْمُعْجِزَةِ بَعْدَ التَّحْدِي، وَالْقُرْآنُ جَمَعَ كَوْنَهُ مُعْجِزَةً بِلَفْظِهِ وَمُتَّحِدِي لِأَجْلِهِ بِمَعْنَاهُ وَالتَّحْدِي وَقَعَ فِيهِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يُونُس: ٣٨] وَلِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ مَدْخَلٌ فِي ظُهُورِ مُقْتَضَى الْحَالِ وَوُضُوحِهِ. هَذَا مَا بَلَغَ إِلَيْهِ اسْتِقْرَائِي وَلِلْغَزَائِي فِي «إِحْيَاءِ عُلُومِ» الدِّينِ بَعْضُ مَنْ ذَلِكَ "أه^(١).

وجميع هذه المعاني التي يشتمل عليها القرآن الكريم ترجع إلى ثلاثة معاني.
قال ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) رحمه الله: "والذي اختاره من هذا التقسيم في طريق البيان، وعليه أعمل في طريق الإيراد قديماً، أن علومه (يعني: القرآن الكريم):

توحيد .

وتذكير .

وأحكام.

فقسم التوحيد فيه تدخل: معرفة المخلوقات بحقائقها، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ويدخل في علم التذكير: الوعد والوعيد، والحشر، وتصفية الباطن والظاهر عن أخلاق المعاصي.

ويدخل في الأحكام التكليف كله، من العمل في قسم النافع منه والضار، وحظ الأمر والنهي والندب.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٩/١ - ٤١) بتصرف يسير.

فالأول كقوله تعالى: ﴿إِهْكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، فركب عليه قسم التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال.
والثاني: قسم التذكير، كقوله تعالى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥). وهذا مخصوص بالعظة في المتعارض، متناول لكل في الحقيقة.
الثالث: قوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة من الآية ٤٩).

كما ترجع علوم القرآن إلى آيتين:

كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢).

الثانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقد ترجع (يعني: علوم القرآن) إلى آية واحدة، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦).

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

ولذلك قال جماعة من العلماء في تفسير قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أنها

تعدل ثلث القرآن^(١)؛ في الأجر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد، حديث رقم (٥٠١٣)، ولفظه عن أبي سعيد الخدري t: "أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ".

وقالت جماعة: تعدل ثلث القرآن في المعنى، لأن القرآن ثلاثة أقسام، كما قدمنا، فقسم التوحيد اشتملت عليه هذه السورة على الخصوص، وبهذا صارت الفاتحة أم الكتاب، لأن فيها الأقسام الثلاثة؛

فأما قسم التوحيد، فمن أولها إلى قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤).

فأما قسم الأحكام فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

ومن قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) إلى آخرها تذكير.

فصارت بهذا أما يتفرع عنها كل بنت.

وقيل: صارت أما لأنها متقدمة عن القرآن بالقبلية، والأما قبل البنت.

وقيل: سميت فاتحة لأنها تفتح أبواب الجنة على وجوه بيانها في مواضعها،

ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧). "اهـ" (١).

وهذه المقاصد الكلية لن يخرج هدف السورة، وغرضها الذي ترمي إليه

بمواضيعها المتعددة، عن دخوله في واحد منها، سواء إذا قلنا بالمعاني العشرة على

التفصيل، أو بالمقاصد الخمسة أو الثلاثة على الإجمال.

وبمعرفتها في السورة نتوصل إلى خيط نظامها، الذي ينتظم آياتها،

بمواضيعها، لتكون عقد نظام السورة، ومن ثم مجموعة السور، ومن ثم نظام

القرآن الكريم جميعه.

المبحث الثامن : خطوات تطلب التناسق الموضوعي في السورة:

يرتبط التناسق الموضوعي بقضايا السورة، وما يمكن أن يدل عليها.
كما يرتبط بالوحدة الموضوعية للسورة من جهة أنه يعين على إبراز نظام
السورة وعطف موضوعاتها بعضها على بعض.
ويبرز على هذا ما في ترتيب السورة من نظام .
وعليه ؛ فإن الخطوات التي يتوصل بها إلى إبراز التناسق الموضوعي
للسورة هي التالية :

- ١) معرفة معاني السورة إجمالاً .
- ٢) ويحصر من ذلك موضوعات السورة ومقاصدها.
- ٣) وتقسم السورة إلى مقاطع باعتبار موضوعاتها.
- ٤) وينظر في المحور الذي تدور عليه هذه الموضوعات وترمي إلى تقريره
السورة بموضوعاتها.
- ٥) ويقرر وجه ارتباط اسم السورة بموضوعاتها، ووحدة الموضوعية.
- ٦) ويبين موضوعات السورة، وعلل ترتيبها.
- ٧) يستعان بعلوم القرآن الكريم من أسباب النزول، والمكي والمدني،
وغيرها مما قد يظهر له أثر في جميع ذلك.
- ٨) وينظر في الغاية التي ترمي إليها هذه الموضوعات، وهو المعبر عنه
بالوحدة الموضوعية للسورة.
- ٩) ويربط ذلك بكليات القرآن الكريم ومقاصده العليا.

ومن ثم يبرز نظام هذه الموضوعات ونسقتها في السورة؛ فيبرز مقصدها وغايتها، ومن ثم مقدمات ذلك، ومؤكداته، وما يرجع فيه آخره إلى أوله، وما يربط بعضه بما في غير هذا المحل من القرآن الكريم.

الخاتمة :

انتهت هذه الدراسة إلى نتائج أهمها ما يلي:

- تعريف التناسق الموضوعي، وأنه يدخل في علم المناسبات، فما كان من المناسبات بين مقاطع السورة، من جهة انفراد كل مقطع بموضوع فيها، فهذا من باب التناسق الموضوعي، وما كان من الترابط بين الكلمة في الآية وأجزاء الآية، أو علاقة آية بآية، من دون النظر في ما تشكله من موضوعات السورة؛ فهذا من المناسبات.
- أن العلاقة بين المناسبات والوحدة الموضوعية والتناسق الموضوعي، فيها تداخل، فهي علاقة عموم وخصوص، تشكل المناسبات فيها الدائرة الكبيرة، وتليها دائرة التناسق الموضوعي، وتليها دائرة الوحدة الموضوعية.
- أن التناسق الموضوعي بوابة الوحدة الموضوعية.
- أن لا علاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي.
- أن الغاية والهدف من التناسق الموضوعي هي إبراز نظام الموضوعات داخل السورة، وأنها في تلاؤم وانسجام وترتيب وتتابع بديع.
- أن النظر إلى موضوعات السورة في التناسق الموضوعي يتم على أساس أن السورة (ذات المواضيع المتعددة) تشكل بناء موضوعياً، على الدارس إبرازه، وترتيب الموضوعات داخل السورة على أساسه، ملاحظاً أسرار الترتيب التوقيفي داخل السورة على ذلك.
- أن التناسق الموضوعي اسم جديد في إطلاقه وتعريفه، قديم في معناه وتطبيقه، وهو يدخل مع المناسبات داخل دائرة أخرى عظيمة وهي دائرة النظم القرآني.
- أن كل تناسق موضوعي هو مناسبات.
- أن كل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي.
- أن كل وحدة موضوعية هي مناسبات.
- ليس كل مناسبة تناسق موضوعي.
- ليس كل مناسبة وحدة موضوعية.

تم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المحتويات

المقدمة :	٢
المدخل : القرآن العظيم كتاب متشابه مثاني	٤
المبحث الأول : تعريف التناسق الموضوعي :	٨
المبحث الثاني : العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية :	١٢
المبحث الثالث : العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي :	١٣
المبحث الرابع : العلاقة بين المناسبات في القرآن العظيم والتناسق الموضوعي :	١٤
المبحث الخامس : البداية والنشأة :	٢٥
المبحث السادس : أنواع سور القرآن الكريم من جهة تعدد الموضوعات :	٣١
المبحث السابع : التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم	٣٣
المبحث الثامن : خطوات تطلب التناسق الموضوعي في السورة :	٤٣
الخاتمة :	٤٥
المحتويات	٤٦